لا يحدثك عن شعراء هذا العصر وكتابه ككل لا يتجزأ؛ وإنما يحدثك حديث العارف بالبيئة وآثارها فى الأدب فيقسم بلاد المشرق إلى أقاليم مختلفة متباينة، ثم يحدثك عمن بهذا الإقليم من الشعراء والأدباء والكتاب

وهو حين وضع كتابه يتيمة الدهر يضرب أمامنا مثلا رائعا لم يسبق إليه فى تأريخ الأدباء؛ مثلا لا زلنا نحن معاشر المحدثين نعده متحررا طريفا فى بابه ولا سيما من الوجهة الفنية فى تاريخ الأدب، فكتابه المذكور لا يعتبر كتابا فى تاريخ الأدب فحسب بل هو تاريخ أدبى إقليمى مستقل يتحدث فيه صاحبه عن الحياة الأدبية ورجالها فى الدول الإسلامية الشرقية فى القرن الرابع

«للموضوع بقية»

حامد حفنى داود الجرجاوى
ماجستير فى الأدب
وأستاذ العربية وطرق التدريس
بالمعلمين الريفية

شعراء من أشعارهم

عدى بن زيد العبادي

للاستاذ محمود عبد العزيز محرم

تتمة البحث

فأنت ترى عديا فى القصيدة السابقة تذكر الأكاسرة والقياصرة، وذكر قصة رب الحضر، وذكر قصة رب الخورنق، وهو يعرف أنهم جميعا قد ذهبوا، وألوت بهم الأيام كما تلوى ريح الصبا وريح الدبور بالأوراق الجافة، وقد كانت زاهية يوما، يانعة يوما، جميلة مبهجة للنفوس والقلوب يوما، وهذا هو ديدن الأيام، فمن يبقى على الدهر، ومن خلدته المنون؟

والحضر كان قصرا بين دجلة والفرات، وأخو الحضر الذى ذكره عدى هو الضيزن بن معاوية ملك تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة حتى بلاد الشام. وقد أغار فأصاب أختا لسابور الجنود، وفتح المدن، وفتك بها. ثم إن سابور جمع له، وسار إليه، وأقام على الحضر أربع سنين لا يستغل منهم شيئا، حتى دلته النضيرة بنت الضيزن — وكانت صبيحة الوجه جميلة، وأحبت سابور حين رأته وأحبها — وأعانته، ففتح المدينة وقتل الضيزن يومئذ

والخورنق قصر النعمان بن الشقيقة. وسبب بنائه أن يزدجرد بن سابور كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل مرئ صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة. وكان عامله فى الحيرة على أرض العرب النعمان بن الشقيقة. فأمره أن يبنى الخورنق مسكنا له ولابنه بهرام جور وينزله إياه معه. وكان الذى بنى الخورنق رجلا يقال له «سنمار»، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه وإتقان عمله، فقال لهم لو علمت أنكم توفونى أجرى وتصنعون بى ما أستحقه، لبنيت بناء يدور مع الشمس حيثما دارت، فكرهوا منه تقصيره وأمروا به فطرح من أعلى الجوسق

وقد تناول الشعر قصة سنمار هذه، وضربه مثلا للرجل المجحود الفضل المنكر الجميل، فقال أبو الطمحان القيني:

جزاء سنمار جزوها، وربها ... وللات والعزى، جزاء المكفر

وقال سليط بن سعد من أبى الغيلان وبنيه حين جحدوه فضله وجميل فعله، وقد أخذ منه الكبر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقال آخر وقد جوزى بسوء، يدعو على من أساء إليه بعاقبة كعاقبة سنمار:

جزانى جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار، وما كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجة ... يعلى عليه بالقراميد والسكب (١)

ورب الخورنق أعجبه قصره حين أشرف من أعلاه يوما وسره ماله وكثرة ما يملك، والبحر يجرى عريضا من تحته،

(١) القرميد: الآجر: يطلى به كالجص ونحوه، والسكب: النحاس أو الرصاص

والفلاح ، والملك ، والنعمة ، حين رأى كل ذلك وتهصر فيه ارعوى قليه ، وفكر فى فنائه وفناء الإنسان . ويقال إنه نزل من الجوسق وانطلق إلى الصحراء ولم يعثر له على خبر

فعدى بن زيد كان يعرف الشئ الكثير . وكان يميل إلى أن يفلسف ما يعرفه ويستنبط منه القواعد العامة والنتائج المحتومة . فرأى الكبراء والعظماء والآثار تحور إلى وادى الفناء، ورأى أن الملك لا ينفعه ملكه ، والحصن لا يحمى سيده ، والقصر لا تدوم مسراته ونعماؤه ، ورأى أن كل حى إلى الفناء يصير ، ورأى أن الخاتمة هى الهلاك والانطفاء ، ورأى أن المنون يترصد للناس ، ورأى أن الزمان لا يبلغ الإنسان ما يشتهيه ويأمله، فانطوت نفسه على آماله ومطامعه بائسة محزونة، وعرض هذا كله فى شعره

وقد أثرت حوادث الزمان فى عدى بن زيد تأثيرا كبيرا . وكان هو ميالا إلى استخلاص الحقائق الدائمة من هذه الحوادث العارضة . وهو فى هذه الأبيات التالية يقدم لنا عصارة حياته وخبرته المستمرة بالحياة وأبنائها :

فنفسك فاحفظها عن الغى والردى
متى تنوها يفو الذى بك يقتدى
وإن كانت النعماء عندك لامرئ
فمثلاً بها فاجز المطالب وازدد
إذا ما امرؤ لم يرج منك هوادة
فلا ترجها منه ، ولا دفع مشهد
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا أنت فاكهت الرجال فلا تلع (٢)
وقل مثل ما قالوا ولا تتزيد
إذا أنت طالبت الرجال نوالهم
فمف ولا تأت بجهد فتنكد
ستدرك من ذى الفحش حقك كله
بحلمك فى رفق ولما تشدد
وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تلم
وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد
ولا تلح (٣) إلا من ألام ولا تلم
وبالبذل من شكوى صديقك فاقصد
عسى سائل ذو حاجة إن منعته
من اليوم سؤلا أن ييسر فى غد
والخلق إذلال لمن كان باخلا
ضنينا ، ومن يبخل يذل ويزهد

هذه الحكمة الرائعة إنما هى خلاصة تجارب عدى فى حياته بعد أن بلا مر الناس ومر الأيام ، وبعد أن لم تحقق له الأيام ما يصبو إليه ، وبعد أن تبصر فى مصير الناس — فقراء وأغنياء — بعد هذا كله ، وبعد أن كون رأيا عاما وفلسفة كاملة ، لم ير خيرا من هذا الذى قدمه لنا فى أبياته السابقة . وهى فلسفة تحنو على الضعيف ، وتدعو إلى الرفق والحلم ، وتعترف بتقلبات الأيام واختلاف الحظوظ ، وترى أن أخذ الحياة بالجد والحيطة أتم وأوفق ، وترى أن تكافىء الإحسان بالإحسان ، وأن تؤدب نفسك ، وتحفظها من الغى والضلالة . والمعنى الغارب فى هذه الأبيات كلها هو كف النفس وأخذها بالحكمة والحزم والحذر

وكان طواف عدى بالبلاد نعمة عليه ونقمة أيضا . نعمة عليه لأنه اتسعت مداركه ، وعرف كثيرا ، وأحاط بكثير من أحوال الملوك والدول ، وصقل نفسه وهذب عواطفه . ونقمة لأنه عرف كنه كثير من الأشياء، وعرف اختيان الناس بعضهم بعضا ، وعرف كثيرا من الأحوال المشجية والمبكية ، وهذا جعله يسئ الظن بالأيام وبالناس ، فاصطبغت نظرته إليهما باليأس والقنوط. ونقمة لأن خلاطه بالناس، واختلافه إليهم واختلافهم إليه ، وهم ذرو ألسنة متعددة ولغات متباينة وثقافات مختلفة ، أثر فى تربيته إلى حد دعا إلى الاحتراس منه . لأن طول العشرة ودوام المخالطة يدعوان الانسان — رضا أو كراهة — أن يأخذ عن مخالطيه ومعاشريه كثيرا ، يأخذ من عاداتهم وآدابهم ،

٢) لا تكذب

٣) لائم من لحا يلحو

ويتأثر بأذواقهم ، وينحو منحاهم ، ويميل إلى ما يميلون إليه ، وقد يستعير منهم بعض ألفاظهم ، ويصوغ على أساليبهم ، فتتأثر بذلك لغته ، ويدخلها وهن لم تكن تعرفه من قبل

وهذا ما حدث لعدى بن زيد . وهو نفسه ما دعا ناقدى العرب إلى التنبيه إليه والاحتراس منه ، فهم قد انتقصوه وحذروا من الاحتجاج بشعره ، وذلك لخلطه بكثير من غير العرب من الفرس والروم

فعدى « كان يسكن الحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقل لسانه واحتمل عنه شئ كثير جدا ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة »

وهو « شاعر فصيح من شعراء الجاهلية . وكان نصرانيا . وكذلك كان أبوه وأمه وأهله . وليس ممن يعد فى الفحول . وهو قروى . وكانوا قد أخذوا عليه أشياء عيب فيها . وكان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان . عدى بن زيد فى الشعراء ، بمنزلة سهيل فى النجوم ، يعارضها ولا يجرى معها مجراها »

ومما يعاب عليه من شعره قوله داعيا النعمان إلى الصفح عنه :

أجل نعمى ربها أولكم ودنوى كان منكم واصطهارى

يدعو النعمان إلى الصفح عنه من أجل نعمة قد تعهدها آباء النعمان ، ومن أجل قربه منهم ، ومن أجل مصاهرته إياهم . والمقصود من الاصطهار هنا المصاهرة . ولكن كتب اللغة لم تذكر لاصطهر معنى سوى ما جاء فى قولهم : « اصطهره أى أذابه وأكله » ولو قال « وصهارى » لصح المعنى واتزن البيت (٤) »

وذكر بعض الفارسى فى شعره ، وذلك حين وصف السحاب التراكب ، فوق رأس شيب ، والبرق فى السحاب يلمع لمعان السيوف ، ويظهر صفحة الثوب المصون :

أرقت لمكفهر بات فيه بوارق يرتقين رؤوس شيب

تلوح المشرفية فى ذراه ويجلو صفح دخدار قشيب

والدخدار الثوب المصون وهو فارسى معرب ، وأصله تخت دار

(٤) راجع الأغانى . الجزء الثانى . طبع دار الكتب . ص ١١٤ (الحاشية)

وهم يعدون من شعره أربع قصائد غرر :

الأولى يقول فيها :

أيها الشامت المعير بالدهـ ر أأنت المبرأ الموفور ؟

أم لديك العهد الوثيق من الـ أيام ؟ بل أنت جاهل مغرور !

من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير !

وفى الثانية يقول :

أعاذل ما يدريك أن منيتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

ذرينى فإنى إنما لى ما مضى أمامى من مالى إذا خف عودى

وحمت لميقاتى إلى منيتى وغودرت إن وسدت أو لم أوسد

وللوارث الباقى من المال فاتركى عتابى فإنى مصلح غير مفسد

ومن الثالثة :

لم أر مثل الفتيان فى غبن الـ أيام يدرون ما عواقبها

ومن الرابعة :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا

ومن المعانى معان مجدودة ، تسير من مكان إلى مكان ، وتتناقلها الألسنة ، من هذه المعانى المجدودة المعنى الذى أورده عدى بن زيد فى قوله :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

لقد ورد على لسان الأحنف بن قيس فى قوله :

« من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء . ومن غص بالماء فلا مساغ له . ومن خانه ثقاته فقد أتى من مأمنه »

وقال العباس بن الأحنف :

قلبى إلى ما ضرنى داعى يكثر أحزانى وأوجاعى

كيف احتراسى من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعى

وقال آخر :

كنت من كربتى أفر إليهم فهم كربتى فأين الفرار !

وقال غيره :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه فقل أين يسعى من يغص بماء

محمود عبد العزيز محرم